وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربيـة (الأصمعي)

في مـناهج ما حـــــول النص
قراءة نقدية معاصرة

رسالة تقدمت بها

جنان خليفة عباس حسين البدري

إلى مجلس كلية التربية (الأصمعي) في جامعة ديالى وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف

أ.د إياد عبد الودود عثمان الحمداني

محرم 1430 هـ **كانون الثاني 2009 م**

المنهج النفسي والأدب

إن العلاقة بين الأدب وعلم النفس لا تحتاج إلى إثبات؛ لأنه ليس هناك من ينكرها وكل ما قد تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة ذاتها وشرح عناصرها.وللمنهج النفسي في النقد الأدبي جذور بعيدة يمكن أن نشير إليها باختصار، ولكنها كانت تتمثل في تلك المراحل البدائية التي لم تكن قد تبلورت وأصبحت بشكل منهجي طرائق للنقد، وكانت تنبثق من هذه المراحل بوصفها ملاحظات ترد في بعض ظواهر الإبداع وتفسر قدرا من وظائفه في ضوء عدد من الملاحظات التقنية أو الفطرية[1].

ومما لاشك فيه فإن النقاد عندما اتجهوا إلى علم النفس كانوا يستلهمون روح العلوم التي تمتاز بالدقة والمقاييس الواضحة، فضلا عن أنها تبعدهم عن تحكيم الذوق الشخصي الذي هو بطبيعة الحال يختلف بين شخص وآخر ومكان وآخر وزمان وآخر[2].

لقد كان المنهج النفسي في النقد الأدبي في مراحله الأولى يتكون على شكل ملاحظات عن الظواهر الإبداعية، حتى أصبح فيما بعد منهجا واضح المعالم.

و((يرد اسم سانت بيف على أنه الممهد الأول للدراسات النفسية في النقد ولقد غدت أحدى مهمات الناقد عند سانت بيف البحث عند حقيقة الإنسان المبدع كما تكشفه لنا أو تخفيه آثاره الفنية))[3].

لقد قام سانت بيف بدراسة مظاهر حياة الأدباء وتتبع حياتهم الشخصية وجاء نقده تصويرا لشخصيات الكتاب، أو سيرة نفسية للأدباء . وإذا كان سانت بيف ناقدا أدبيا، فان فرويد قد دخل في مجال النقد الأدبي قادما من حقل معرفي آخر هو حقل التحليل النفسي. لقد قدم الكثير من الرسامين للمحللين النفسيين كشفا لمسيرة المرض النفسي بعقود زمنية طويلة رجوعا صحيحا في التشخيص والفحص[4].

---

(1) ينظر: في النقد الأدبي :38.
(2) ينظر: اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق (الزبيدي) :28.
(3) ينظر: المصدر نفسه:28.
(4) ينظر: رؤية نفسية للفن:147.

وقد كان تقدم (أرسطو) بمفهوم التطهير(الكاثرسيز) في حديثه عن اثر المأساة في الجمهور أول معلم حقيقي من معالم الطريق إلى شرح العلاقة بين الأدب والمنهج النفسي، والانتقال من الإحساس إلى الإدراك الأكيد لهذه العلاقة[1].

يمكننا – مثلا - أن نجد في نظريات افلاطون عن أثر الشعراء على منظومات القيم والحياة في مدينته الفاضلة، بداية لهذا الالتفات العميق للجانب النفسي في بعثه فلسفة الأدب ووظائفه، ونظرية التطهير عند أرسطو إنما تربط الإبداع الأدبي بوظائفه النفسية [2].
أما أصل الدراسات الأدبية وعلاقتها بالنفس، فهي قديمة في الآداب الإنسانية على وجه العموم.

ولعل النقاد والبلاغيين العرب قد لمسوا مظاهر هذه العلاقة بشكل أو بأخر، فانتبهواالى الظروف التي تعتري النفس فتنشئ الأدب، كما أحسوا بتأثير الأدب في النفس وإثارة ألوان عدة من المشاعر[3].

ولكن هذه المرحلة لم تتعد الإحساس المبهم ولم تتطرق إلى الشرح الموضوعي، فلم يحددوا معالم التجربة الفنية.
وربما كانت الدراسات النقدية القديمة في أدبنا العربي قد سارت باتجاه الاصوب للوصول الى الحقيقة التي نحن بصدد البحث فيها، بوصفها الإرهاصات الأولى البدائية للدراسات النقدية الجادة، بدءا من ابن سلام الجمحي (ت 231 هـ)، الذي كان له قصب السبق في وضع البذور الأولى لمعايير النقد الأدبي في كتابه المشهور(طبقات فحول الشعراء)[4].

والواقع أن الدراسات الحديثة التي تخص علم النفس اكتشفت أن إظهار الإنسان لوجهه الحقيقي المكبوت، إنما هي استجابة لمثير خارجي، فيتميز المرء نتيجة هذا الهيجان بتهيؤ أفعال للكشف عن مكبوتاته الناتجة في غير وعيه، فإذا وجدت استجابة لدى الفنانين ظهرت مقنعة في قالب فني بغية إبراز الوجه الحقيقي لهذا الفنان[5].

---

(1) التفسير النفسي للأدب:13.
(2) في النقد الأدبي: 38.
(3) ينظر: التفسير النفسي للأدب:13.
(4) ينظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي (فيدوح) : 23.
(5) ينظر: المصدر نفسه :24.

أما الافكار التي هيمنت على الحركة النقدية في العقد الخامس من القرن المنصرم هي افكارمصطفى سويف وعز الدين إسماعيل اللذين حفرا مجرياتهما في الحياة النقدية [1].

وفي عالمنا العربي ، وجد النقد النفسي له مكانا في جهود جماعة الديوان ولاسيما العقاد منهم ، الذي ربط مهمة الشعر بالحركات النفسية [2].

وجهود الدكتور محمد النويهي ، والدكتور مصطفى سويف وأمين الخولي وغيرهم. وهيمن الاتجاه النفسي على نتاج نقاد آخرين من عالمنا العربي منهم جبرا ابراهيم جبرا ، وعبد الجبار عباس ، وياسين النصير ، والدكتور روكان إبراهيم وغيرهم، وجاءت دراسة الدكتور روكان إبراهيم في كتابه (الذنب المنكفئ عند السياب) تعالج الحالة النفسية .

ولعل أصحاب الديوان قد ألفوا البداية الحقيقية لظهور الاتجاه النفسي في الأدب العربي وأبرزهم ما قام به العقاد من دراسات نفسية لشخصيات الشعراء باتجاهه نحو مدرسة التحليل النفسي.

وقد عد ستانلي هايمن، وهو يتحدث عن أعظم العلماء والمفكرين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، عدّ فرويد واحدا من العلماء الأربعة العظام في هذين القرنين [3].

ويبدو أن ستانلي هايمن على صواب إذ إن المراجعة الدقيقة لمؤلفات فرويد ومعطيات مدرسته التحليلية النفسية وما أخذت به الاتجاهات النقدية الأدبية دليل لا يقبل الشك في عظمته[4].

إن الفن هو حالات من الأفكار ومقادير من الرؤى وطرائق من التصوير وأنواع من المشاعر، التي يعبر عنها الفنان، وانه لايمكن أن يدرس بمعزل عن منتجه لان هناك صلة وثيقة متصلة بين المُحدِث والمُحدَث وان ظهور مفهوم الحالة الخاصة في العمل الفني سبب حرجا للنقد والنقاد في كيفية التعامل مع الفنان وتحليل أثره الإبداعي[5].

---

(1) ينظر: بنية الخطاب النقدي - دراسة نقدية : 86.
(2) ينظر: ساعات بين الكتب : 411.
(3) اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق (الزبيدي) :28 .
(4) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة: 1 / 263.
(5) ينظر: رؤية نفسية للفن: 5.

فضلاً عن ذلك، فالمنهج النفسي بدأ بشكل علمي مع بداية علم النفس في نهاية القرن التاسع عشر بصدور مؤلفات فرويد وتأسيسه لعلم النفس، التي قام على أساسها بالاستعانة بدراسة ظواهر الإبداع في الأدب والفن، كتجليات للظواهر النفسية، من هنا يمكن أن نعتبر ما قبل فرويد من قبيل الملاحظات العامة التي لا تؤسس لمنهج نفسي بقدر ما تعتبر إرهاصات وتوطئة له، لكن المنهج ذاته يبدأ مع تكون علم النفس، أو علم التحليل النفسي عند سيجموند فرويد[1].

وبهذا تكون علاقة المنهج النفسي بعلم النفس قائمة على توظيف نظريات منضبطة ، وهذا هو السبب الذي جعل الكثير من إجراءات النقاد ذات بعدٍ نفسي أكثر من البعد الفني والجمالي التي تبحث فيها المناهج النقدية في الأصل .

---

1 - ينظر: في النقد الادبي:38،39.

المبحث الأول
النظرية النفسية في الأدب

أ - نـظـرية فـرويـــد.
ب - الإبداع عند فرويد.

أ- نظرية فرويد FREUD

أهم النظريات التي يمكن أن نستثمرها في منهج عملنا وميدان الأدب، هي نظرية فرويد .

((يرى فرويد أن دوافع الإنسان ورغباته يمكن أن ترد جميعا إلى غريزتين عامتين أي يشترك فيها أفراد النوع الإنساني جميعا))[1].

إن الغريزة لها موضوع ومصدر وهدف.وموضوع الغريزة ما يثيرها، ومصدرها هي حالات الانفعال عند الإنسان، وهدفها المستمر هو إزالة هذا التوتر واستبداله بالتوازن والسعادة، وان إزالة التوتر عند الفرد يحدث له إحساس خاص هو الشعور بالرضى او((باللذة)) وهو مااشار اليه أكثر علماء النفس والنقاد، وهو ماأكده فرويد في نظرياته.

((صنف فرويد الغرائز المجموعتين أولهما غرائز الحياة وثانيهما غرائز الموت، وتتمثل غرائز الحياة بالحاجات الجسمية التي يكون إشباعها ضروريا لعيش الإنسان وديمومته واعتبر الغريزة الجنسية من اهم غرائز الحياة، أما غرائز الموت التي تتضمن قوى تدمير فتتجلى في التخريب والهدم والعدوان))[2].

في ضوء غريزتي الحياة والموت تناول (فرويد) ، عالم المبدعين ، وتوصل إلى أن أهم مفاهيم النقد النفسي تتجسد في ((أن العملية الفنية ما هي إلا نتيجة لعملية اضطراب عصبي ، وان الفنان عن طريق التعبير الفني يعصم نفسه من أن تتحطم تماما ، ويحول بينها في الوقت نفسه . عن طريق مداومة النتاج الفني والشقاء الكامل))[3].

فضلا عن دمجه عدة غرائز جزئية في زمرة غريزة الحياة، ألا إن فرويد أعار الغريزة الجنسية اغلب اهتمامه. وأكد ما يحدث عند كبتها من أضرار تلحق بالمصير النفسي للفرد، حتى أصبحت الغريزة الجنسية في اغلب كتاباته مرادفة لغزيرة الحياة.

وان أعراض هذه النظرية لما لها من علاقة في التفسير النفسي للأدب والتي رجع لها أكبر النقاد والمحللين ونسبوا أعمالهم إلى هذه النظرية وعند تحليلهم لحالة فرد ما ! كانوا يطلقون عليها مصطلح ((عقدة أوديب)) أو ((عقدة الكترا)) فما هي هذه العقد وما علاقاتها بالفرد على وجه العموم؟

---

(1) علم النفس التربوي، : 76.
(2) علم النفس العام: 98.
(3) اتجاهات نقد الشعر في الحلقات الدراسية لمهرجان المربد الشعري (رسالة ماجستير) : 44،45

استطاع فرويد أن يضع نظرية مفصلة عن نمو الغزيرة الجنسية وتطور مناطق إشباع الطاقة البدنية من الفم إلى الشرج، وصور علاقة الفرد بالآخرين في مراحل نمو الغريزة المختلفة.

من أهم المراحل التي أكدها فرويد هو : كيف أن المرحلة الاوديبية تمثل مرحلة من مراحل النمو الجنسي تمتاز بكثير من المخاوف والرغبات التي يضطر الطفل إلى أن يكبتها أمام سلطة والده؛ بسب ميله الشديد نحو أمه، أما عقدة الكترا التي أكدها فرويد وهي مرحلة من مراحل النمو الجنسي عند البنات التي تمتاز بكثير من المخاوف والرغبات التي تضطر بها البنت إلى أن تكتم ميلها إلى الأب أمام سلطة أمها، بسبب ميلها الشديد نحو الأب[1] .
إن هذه النظرية لها علاقة مهمة بالأدب وذلك لان أكثر المحللين لحالة الشعراء أكدوا على وجود حالات نفسية ترجع أسبابها إلى مرض نفسي قديم مثل ((عقدة اوديب أو عقدة ألكترا)) ولقد عرض فرويد في نظرية نمو الغريزة الجنسية من عدد من الغرائز المكونة، وفي البداية، خلال مرحلة الشهوية الذاتية، تبحث كل غزيرة عن الإشباع في استقلال نسبي عن بعضها البعض ولكنها فيما بعد خلال ما يسمى بالتطور السوي تصبح متكاملة عند الإنسان وبذلك تكون تحت سيادة تلك الغرائز وتتم تحت خدمة الإنسان[2].

ويمكن أن نستنتج من ذلك انه بسّط مفهوم الغريزة حتى جعلها أصل كل محبة ومودة وصداقة وعطف وحنان . وانه جعل كل لذة مهما كان مصدرها لذة جنسية . وكل نشاط يرمي الى التخفيف من توتر جسمي او وجداني إرضاء للغريزة الجنسية .
ويعتقد فرويد أن الانحرافات الجنسية لدى الراشدين ترجع إلى الفشل في تحقيق تلك السيادة واستمرار السيطرة غير الملائمة لبعض الغرائز المكونة الأخرى غير الغريزة التناسلية، ومن الممكن إذن أن يوصف الطفل بأنه منحرف متعدد الأوجه[3].

---

(1) ينظر: علم النفس الإكلينيكي: 446.
(2) ينظر: علم النفس في مائة عام : 197.
(3) المكان نفسه

ويمكـن الاسـتنتاج أن الغريـزة الجنسـية لهـا تـأثير كبيـر فـي انفعـالات الإنسـان وتصرفاته،وفي الأعمال الناتجة عنه سواء أكانت هذه الأعمال فنية أم لا ، ولهذا السبب آثر أكبر المحللين عند مصادفة حالات فنية غريبة الرجوع إلى دراسة حالة هذا الفنان وكيف كانت مراحل نموه في مراحل حياته المختلفة، لإيجاد السبب في وضعه النفسي الشاذ عن الآخرين.

وطرح فرويد نظريته عن العدوان والتي تنشأ من كبح الميول الجنسية وكبتها، لكنه ذهب أخيرا إلى أن الميل إلى العدوان استعداد غريزي قائم بذاته، ويجب أن يحرر الإنسان منه بتحويل مجراه أو إعلائه ، ومادام العدوان أحد مظاهر الغريزة ومادام يرضي حاجة أساسية بيولوجية كالجوع والعطش فلابد أن يشبع دائما[1].

لقد استثمر النقاد نظرية فرويد لتحليل الإبداع الأدبي ، لاسيما نظريته في تفسير الإبداع التي ترتبط بكبت الرغبات الجنسية ، فأكثر ما نجده من ملاحظات كان يصب في هذا الاتجاه .

---

1 - علم النفس التربوي:79.

مهارة الإنسان وتفكيره بعمله وإجادته وإتقانه وإيصاله إلى الدرجة التي تخترق أفعال الإنسان الأخرى في مجتمعه الذي يعيش فيه.

ولقد كان لعلماء النفس رأيهم المتميز في تفسير الإبداع عند الإنسان وكان تقسيمهم مبنيا على تجربة وبحث مستمرين للوصول إلى عوامل تكوين ظاهرة الإبداع، وكان أهم العلماء النفسيين الذين اهتموا بالإبداع هو فرويد.

يرى فرويد إن التسامي هو العملية المؤدية مباشرة إلى الإبداع الفني، فحينما يتعذر الإشباع الكامل للرغبات الجنسية عند الإنسان في الحياة الواقعية يتكون عنده دافع هذه الرغبات إلى نشاط إبداع وخلق فني في حالة الفنانين. إن هناك رابطة بين الدافع إلى البحث وبين الدافع الشبقي نتيجة كبت بسبب النظم الاجتماعية، وهذا الكبت يدفع إلى نشاط البحث، لكن النتيجة حياة فكرية ضيقة الأفق، ويحدث أحيانا أن يعجز الكبت عن الأضرار بدافع البحث، بل يعجز أيضا عن غمر جزء مهم من الدافع الشبقي إلى التسامي الذي يؤدي إلى الإبداع[1].

وبهذا نستنتج أن الإبداع عند فرويد حالة ناتجة عن كبت لدوافع جنسية تصيب الإنسان، والنظم الاجتماعية تسد مجراها، على أن هذا قد لا يكون السبب الوحيد للإبداع إذ انه ينتج أحيانا عن تكيف الإنسان مع بيئته ومجتمعه الذي يعيش فيه.إن الإنسان كلما ازداد مدى انسجامه مع البيئة التي يعيش فيها، ازداد مقدار إبداعه أكثر.

وقد ابتكر فرويد تفسيرا لعملية الإبداع يعتمد على التحليل النفسي الذي ينظر الى الفن على انه ناتج عن الكبت وهذا ما ذكرناه سابقا، لكنه يقول إن الغرائز الجنسية المكبوتة منذ الطفولة تضع في متناول العمل الثقافي كميات عظيمة من القوى الكبيرة، وتوجد، ثلاثة انحرافات قد توجه هذه الغرائز، الرضا التام والكامل من الإشباع الجنسي للطاقة الشبقية او الكبت التام الذي ترافقه اختلافات في التوازن النفسي وأخيرا التسامي الذي يتخذ أشكالا عديدة كالتصميم في الحصول على القوة الاقتصادية أو السياسة والإبداع الفني[2] .

وسيتبين في دراستنا النقدية أن عملية الإبداع لا يمكن أن تتم بمعزل عن سياق العمليات النفسية وتؤكد على أهمية الدافعية للنشاط الإبداعي وان الفرد كي يستطيع إنجاز أنشطة إبداعية لابد له من طاقة دافعية كافية، والدافعية هي حالة داخلية في صميم الإنسان ، جسمية او نفسية تثير السلوك في ظروف معينة وتدفع الإنسان الى هذا الإبداع، فان الفنان لايمكن أن ينتج إبداعه من دون دافعية جسمية أو نفسية مكونة له.

---

(1) ينظر: الإنسان من هو ؟ : 40.
(2) ينظر: علم النفس الفني: 152.

((إن التخيل في أحد معانيه الملكة الاختراعية او الابداعية مرادف لعملية الإبداع ، ففي قلب الإبداع توجد اللحظة المبدعة والإلحاح الإبداعي. وهما الخبرتان الشخصيتان الأكثر عمقا اللتان يستشعرهما الفرد وهنا تخبر الـ(أنا) أعمق اختباراتها وذلك على أساس أن الإبداع يعني الإدراك والعمل، كما إن الـ(أنا) تعمل متبعة طرقها الأكثر خصوصية وهي بالتفريق تقوم بإنتاج مزيج من غير الممكن التنبؤ عنه من خلال القوانين العامة))(1).

وان فرويد استعان بالتحليل النفسي في الكشف عن إبداع الكثير من الفنانين منهم (ليوناردو دافينشي) وعلى حد قول فيزاري: فان ليوناردو ظل يعمل أعواما في صورة موناليزا، زوجة حاكم الجيوكندا دون أن يقدر على إكمالها.وربما يفسر هذه الظروف أيضا حقيقة أن هذه اللوحة لم تسلم أبدا إلى الشخص الذي أمر برسمها، وإنما ظلت مع ليوناردو، الذي أخذها معه إلى فرنسا.

ويقول فرويد في تحليل لوحات (ليوناردو دافينشي):((إننا نحس حيث نذكر بشأن ليوناردو اجتماع الدافع القوي للبحث وتعطيل حياته الجنسية، التي كانت محصورة فيما اسمي بالجنسية المثالية نحس بميل إلى اعتباره مثالا نموذجيا للنمط الثالث فيبدو أن اشد النقاط جوهرية في شخصيته، هي انه بعد أن استفاد من النشاط الطفلي في خدمة المتعة الجنسية، قد أصبح قادرا على إعلاء الجزء الأكبر من اللبيدو عنده إلى الدافع للبحث))(2).

ويؤكد ذلك بطريقة أخرى العالم الكبير ستانلي هايمن إذ يقول: ((وان كان فرويد يصّر على إن ليوناردو لم يكن مريضا في أعصابه بأي حال، وهي محاولة تعتمد كثيرا على تحليل فذ لذكرى وهمية تخيلها ليوناردو عن نسر، ويريد العالم النفسي ان يبني على أساسها سيرة الفنان وتطوره النفسي، بفهمه مكبوتاته الجنسية والفنية المتأخرة))(3).

ويسمي فرويد عمله هذا محاولة في كتابة سيرة، ويصر على إنها شيء تجريبي، ويخصص اكبر قدر من كتابه ليحرز الطفولية لما يسميه في تشخيصه الشذوذ الجنسي المثالي أو البدائي عند ليوناردو، ولا يهتم فرويد بآثار ليوناردو إلا أن يكشف فيها عن مزيد من الشهادات حول الحياة النفسية لهذا الفنان.

---

(1) علم النفس الفني:76.
(2) التحليل النفسي والفن، :25.
(3) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة: 363/1.

النظرية النفسية في الأدب

ويكتب الناقد الدكتور حسين الواد عن شخصية الأديب عند فرويد حيث يقول ((اعتنى فرويد بشخصية الأديب المبدع، اكبر ما اعتنى بها، في عملين اثنين له، حلل في الأول منهما شخصية الفنان الرسام العالم الإيطالي ليوناردو دافينشي (1452، 1519) ووقف في الثاني

على بعض الخصائص النفسانية في شخصية الكاتب الروائي الروسي دوستويفسكي (1821-1881) فكشف عن أسرارها، وانطلق، في تحليل شخصية ليوناردو، من ذكرى احتفظت بها مفكرته عن طفولته الأولى.فقد روى انه يذكر، عندما كان في المهد، انه رأى نسرا ينزل عليه ويفتح له فمه ويضربه بذيله على شفتيه عدة مرات.نفذ فرويد من هذه الذكرى فحللها التحليل النفساني، وبناها بناء فسّر به، في الآن نفسه البطء الذي اشتهر عن ذلك الرسام الإيطالي في إنجاز أعماله العظيمة))[1] .

ويذكر فرويد في تحليل نفسية دوستويفسكي ((لقد أصبح الـ(أنا) الأعلى ساديا، فأصبح الـ(أنا) ماسوكيا، أي انه أصبح في أعماقه سلبيا بطريقة أنثوية.

وتتطور حاجة كبيرة إلى العقاب في الـ(أنا) الذي يقدم نفسه_ من ناحية_ كضحية للقدر، ويجد الإشباع _ من ناحية أخرى _ في سوء المعاملة التي يلاقيها من الـ(أنا) الأعلى، أي في الشعور بالذنب لان كل عقاب إنما هو إقصاء ، وهو بالمثل تحقيق للموقف السلبي القديم نحو الاب وحتى القدر لايكون في مظهره الأخير إلا إسقاطا أخيرا للأب))[2].

وعندما يتكلم فرويد عن" دوستويفسكي وجريمة قتل الاب " يقول إن عقدة الخصاء تثير اشد أنواع النفور، ويرجع هذه العقدة عند الفنان إلى العقدة الأوديبية.

ويذكر ستانلي هايمن بخصوص كتاب ((دوستويفسكي وجريمة قتل الأب)) يقول:((فانه كاد يقع في منتصف المسافة بين المنهجين، وهو معنيّ في الدرجة الأولى ببلوغ الصرع الهستيري الذي كان يصيب دوستويفسكي، ورغبته الاوديبية في موت أبيه وشذوذه الجنسي الدفين))[3].

إن قصص دوستويفسكي من حيث هي آثار فنية باهرة، كان مهتما كثيرا بتقديم كل ما يستطيعه، من حيث علاقتها الرمزية بمرض المؤلف ومن حيث علائقها الشكلية الخالصة.

ومن هذا نستنتج إن فرويد حلل الكثير من شخصيات فنانين واكتشف من خلال أسرار نفسيتهم التي كانت تظهر في الأثر الإبداعي للفنان نفسه، فان فرويد جعل من إبداع الفنان خيطا أساسيا يصل به إلى الكشف عن حالته النفسية.

---

(1) في مناهج الدراسات الأدبية (الواد) : 5.
(2) التحليل النفسي والفن :105.
(3) النقد الأدبي ومدارسه الحديثة:163/1.

النظرية النفسية في الأدب

((إن الإبداع الفني لا يشكل جانبا خاصا للفن النفسي المرضي كما يميل بعض الأشخاص إلى الاعتقاد ولكنه نتاج تكامل ومهارة وتفكير وانفعالات الفنان مع تأثيرات محيطه الاجتماعي والحضاري وعلى الرغم من ذلك فان الفن النفسي المرضي يساعدنا على النظر بعمق في الطريقة التي تعمل فيها العملية الإبداعية))[1].

كان فرويد يعمل في منطقة التحليل النفسي، ويهتم بالدرجة الأولى بالظواهر المرضية مثل العصاب وانفصام الشخصية وغيرها.

((وكان ربط الإبداع الأدبي بمثل هذه الظواهر المرضية إيذانا باعتبار المبدع إحدى حالات الشذوذ التي يمكن عن طريق تحليلها الكشف عن الحالات السوية الأخرى، ولم يكن ذلك يقلق منهج فرويد ولا تلاميذه في التحليل، لان نقطة ارتكازهم، وبؤرة اهتمامهم تتمثل في الدرجة الأولى في الكشف عن طبقات الشخصية))[2].

إن الأعمال الفنية، هي إشباع خيالي لرغبات شعورية شأنها شأن الأحلام، وهي تمثل محاولات توفيق بين رغبات مكبوتة كما ذكر فرويد سابقا.

((يحاول فرويد أن يستخلص العمل الفني من صميم الخبرات الشخصية للفنان، فالفنان كما ترى هو المدرسة شخص منطو يقترب من حالة المريض النفسي العصابي وأعماله الفنية ليست سوى وسائل للتنفيس او لإحداث التوازن النفسي عن رغباته الجنسية المكبوتة.إن فرويد حين يتناول عمل ليوناردو دافنشي (الموناليزا) يفسره على أساس انه عملية اعلاء او اتسام بالغريزة الجنسية او بمثابة متنفس لطاقة (اللبيدو) وتحويلها عن الإشباع الحقيقي وتوجيهها الى أساليب المثالية والرمزية للتعبير))[3] .

نستنتج من ذلك إن الإبداع عند فرويد يصدر عن العقل الباطن أو اللاشعور بما فيه من عقد مكبوتة ترجع في حينها الى الغريزة الجنسية ولكن الفنان يختلف عن المريض العصابي في أن لديه المرونة الكافية لتشكيل صور التسامي والتعبير عن اللاشعور بما فيه من ذكريات مكبوتة يمتد بعضها من عهد الطفولة .

---

(1) الفن وعلم النفس المرضي (بحث):59.
(2) في النقد الأدبي: 39.
(3) علم النفس الفني:153.

النظرية النفسية في الأدب

((إن إدراك النتاج الفني عند فرويد تجسده مواصفات التحليل النفسي عبر استكناه الذات المبدعة بما يحيط بها من عمليات نفسية.وما يترسب في داخلها من رغبات تتوافق مع شعور المرء، وما يجول في خاطره عن طريق ربط انفعالاته بهيوماته فينتج عن هذه العلاقة المتناقضة بين "الوعي واللاوعي " تجسيد فعل الأثر بإفرازه، وتحديد موقعه إلى خارج الذات))[1] .

إن هذه النظرة التي ذكرتها سابقا في مفهوم فرويد لعملية الإبداع التي ترتبط بين الأثر ومبدعه، هي نتيجة للحتمية التي توصل إليها من إن هذا الأثر هو مظهر من مظاهر الهذيان الظاهر عن العصابيين الخلاقين المبدعين، فضلا عن أن هذه الأعراض سمة عامة بين الناس، ألا إنها متفاوتة في أعراضها للتشكيل الفني عند الفنان المبدع.

((يرى فرويد إن الأدب تعبير مقنع وانه تحقيق لرغبات مكبوتة قياسا على الأحلام، وان هذه المقنعات تعمل حسب مبادئ معروفة، وهناك كون فكرته عن أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي، وان بين الرقيب والرغبة في التعبير صراعا مستمرا))[2] .

إن وراء الوعي الذي يتكلم عنه فرويد وينسب إليه الإبداع بعد الرغبات المكبوتة هو مصطلح آخر عن اللاشعور المفرد الذي كتب عنه الدكتور علي الوردي حيث قال: ((إننا إذ نعترف بفضل فرويد لا يجوز أن نغالي فيه على نحو ما غالى العقلانيون في المنطق القديم إن الدراسات الحديثة اظهرت كثيرا من النقائض في نظرية فرويد. وقد نشر احد الباحثين في أمريكا مؤخرا بحثا وصف فيه نظرية فرويد بأنها بمثابة فقاعة صابون سرعان ما تتبدد في الهواء عند مواجهتها للحقائق العلمية ووصف النظرية باحث آخر يقول :إنها مثل بناية كبيرة جدا ولكنها شيدت وفقا لخطة رديئة))[3].

ولكنه يؤكد أن النظرية الفرويدية دخلت الأدب وتبناها بعض مشاهير الأدباء وصارت بعض مصطلحات فرويد ـ كعقدة (أوديب) محوراً للكثير من الروايات والمسرحيات. ويرى((أن اللاشعور في مفهومه الحديث يختلف عما فهمه فرويد منه فهو لا يحتوي على الرغبات المكبوتة فقط بل هو يشمل محتويات أخرى عديدة وهذه المحتويات كانت قد ذكرتها وكررت ذكرها، ومن الممكن أن نطلق مصطلح اللاشعور على جميع الدوافع التي تدفع الإنسان في مختلف الحياة وهو لا يعرف مصدره فيه فالإنسان حيث يندفع ليس بإرادته بينما هو بالدافع مسير من حيث لا يدري))[4].

---

(1) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي (فيدوح):64.
(2) اتجاهات نقد الشعر العربي في العراق (الزبيدي) :28.
(3) في النفس والمجتمع العراقي:22.
(4) المصدر نفسه :23، 24.

النظرية النفسية في الأدب

ومن كلام الدكتور علي الوردي نستنتج أن اللاشعور ينتج عنه الابداع ليس فقط من كبت الرغبات الجنسية كما ذكر فرويد وإنما هو من محتويات أخرى متعددة تدفع الإنسان.

وتكلم الدكتور علي الوردي ((عن ثلاثة من كبار الفلاسفة المحدثين بحثوا في العبقرية ووصلوا فيها إلى نتيجة تكاد تكون متشابهة وهي إن العبقرية خروج عن الذات وانغمار في عالم أسمى وواسع))[1].

ويبدو العالم الأسمى والأوسع هو عالم اللاشعور الذي يعيشه الفنان.وهذه من أحدث النظريات الحديثة عن اللاشعور.

ويعد كتاب مصطفى سويف "الأسس النفسية للإبداع الفني"خير ممثل لهذا الاتجاه إذ انطلق الكاتب من نظريات علم النفس وراح على ضوئها يحلل النصوص الشعرية العربية وقد اهتم خاصة بتحليل المسودات التي سلمها له الشعراء أنفسهم باحثا في ذلك عن الأخطاء ومشابه ذلك لتفسيره في ضوء علم النفس وقد اهتم خاصة بدوافع الابداع أكثر من اهتمامه بالإبداع المتحقق فعليا على مستوى النصوص [2].

وهو يرى أن الإبداع يرجع إلى دوافع مختلفة عند الإنسان وليس كما ذكر فرويد فقط ناتجة عن الرغبات المكبوتة عن اللاشعور.

وهنا ينبغي إن نبين شيئا مهما قبل أن نختم حديثنا عن الابداع، وهو أن لدينا في الثقافة العربية أفكار نشأت منذ منتصف القرن الماضي، وأصبح لها انجازها المتفرد في مجال علم نفس الإبداع أشاعها الدكتور مصطفى سويف الذي يعد كتابه "الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة " بمثابة نقطة الارتكاز الجوهرية لأعمال هذه المدرسة التي لم تلبث أن تشعبت بعد ذلك لدى تلاميذه فكتبوا بحوثهم ودراساتهم الخلاّقة عن بقية الأجناس الأدبية، كتب الدكتور شاكر عبد الحميد "الأسس النفسية للإبداع الفني في القصة القصيرة" وكتبت الدكتورة سامية الملة "الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرح " وتكونت في الثقافة العربية نواة مدرسة لعلم نفس الابداع.

إن المشكلة الجوهرية التي تواجهنا عند النظر إلى هذا الإنتاج تتمثل في شقي الإنسانية، وان الإبداع والأدب يوصفان كأمثلة ونماذج للكشف عن هذه الحقائق.

((إن اللغويين القدماء يستخدمون الشعر _مثلا كشواهد على قواعدهم النحوية، فان علماء النفس المحدثين يستخدمون الشعر وغيره من إشكال الأدب كشواهد على مبادئهم، وقواعدهم، النفسية، فتصبح دراسة الأدب ونقده مجرد هامش موضوع لمنظور علمي يرتبط بدراسة النفس الإنسانية بتجلياتها المختلفة ومجرد شاهد على بعض الحالات التي توصف بأنها شاذة، تهميش الأدب واعتباره مظهرا للشذوذ باستخدام مصطلحات علم النفس يعد النتيجة الأولى لتوظيف هذا المنهج))[3].

---

(1) خوارق اللاشعور :69.
(2) الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة : 250 .
(3) في النقد الأدبي :42.

النظرية النفسية في الأدب

والمهم أن الفن في نظر فرويد هو الميدان الأوحد في حضارتنا الحديثة الذي ما زال الإنسان يحتفظ فيه بقدرة فكرية هائلة على أن يندفع تحت وطأة رغباته اللاشعورية إلى إنتاج ما يشبه تلك الرغبات، ويقول (شالموه) وبالطريقة نفسها التي قام بها فرويد بشفاء الوهم الهستيري بتحويله، إلى مقالة علينا أيضا فهم المادة التصويرية بكلمات تكشف اللثام عن التصورات والحجج التي تختبئ الصورة الحلمية خلفها [1].

ويسهب "فرويد" في تحليله النفسي، عن تحقيق الأثر الإبداعي، ليصل بنا إلى الأوليات النفسية التي تربط الأثر الفني بالغرائز الجنسية الدافعة، وبدوافع غير واعية ترسبت في داخل

الفرد وفي حالة لا شعوره منذ صباه في بداية حياته، التي استطاع أن يصدر على أساسها حكمه، المبني على تحليل نفسي، وكما ذكرنا ليوناردو دافنتشي واوديب، ثم هاملت الذي أعطى له المفاتيح الأساسية لمعنى حقيقة الكبت في نظره وانتشاره في مجتمعنا[2].

إن هذه الدراسات النفسية كان لها الأثر الواضح والكبير في التحليل النفسي في الأدب، إذ أن الأدباء حللوا شخصيات الكثير من الفنانين، ونسبوا أسباب إبداعهم إلى أحدى النظريات النفسية التي دعت بها، مدرسة التحليل النفسي.

ولا بد لنا قبل أن نختم هذا المبحث من إظهار المعالجة النفسية وإجراءاتها وعلى ماذا تعتمد هذه المعالجة ؟ وما هي انتقاداتها على الرغم من مميزاتها التحليلية ؟

إن المعالجة النفسية تهتم بالمضمون من حيث انه يكشف عن النوازع والمكبوتات . وتعتمد على علم النفس بنظرياته المختلفة ،ويستند التحليل إلى مدرسة التحليل النفسي بحسب النظريات النفسية لعلماء النفس . أما أهمية هذه المعالجة النفسية فإنها تكمن في كونها تعتمد بشكل كبير على علم محدد المعالم يستند إلى قوانين وضوابط دقيقة ، لأنه يبعد الناقد عن الظن والتخمين .

أما أصل هذه المعالجة النفسية فيرجع إلى اليونان عندما ذكر أرسطو أن المأساة تؤدي إلى أثارة عواطف الخوف والشفقة عند الإنسان . ويعد فرويد رائد المعالجة النفسية الحديثة ، وجاء بعده علماء نفس آخرون مثل آدلر ويونج[3].

---

(1) ينظر : علم النفس الفني: 156، 157.
(2) ينظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي أصوله وقضاياه، (أبو الرضا):66.
(3) ينظر: المناهج النقدية في نقد الشعر العراقي الحديث (أطروحة دكتوراه) : 88، 89 ، 90 .

النظرية النفسية في الأدب

لا توجد إجراءات محددة للمعالجة النفسية وإنما هناك اتجاهات أجدر بنا ان نذكرها هي :

1 - دراسة النص دراسة نفسية والتعرف على ابرز ما يتكشف عنه من أنماط وقوانين وقضايا نفسية باستخدام آليات التحليل النفسي .
2 - دراسة النص في ضوء حياة الأديب النفسية .
3 - دراسة تأثرالمتلقي بالنص والكشف عن العامل الخارجي الذي أدى إلى استجابته لهذا النص،ودراسة الأديب نفسياً في ضوء نتاجه .
4 - دراسة عملية الخلق والإبداع والدوافع اللاشعورية الكامنة وراءها[1] .

ويمكننا تمييز المعالجة النفسية عن غيرها من المعالجات من خلال استنادها إلى علم النفس وآليات التحليل النفسي .

ومثلما توجد مزايا كثيرة للمعالجة النفسية فهناك انتقادات موجهة ومن هذه الانتقادات مثلا أن ت. س .إليوت لا يتفق مع نظرية تقوم على أساس (سايكولوجي) كما أن فرويد عالم النفس الحديث يذكر أن التحليل النفسي لا يمكن أن يطلعنا على طبيعة الإنتاج الفني ، كما أن محمد مندور هاجم بعنف علم النفس وشبه دراستهم بأنهم يشرحون فراشة بسكينة بصل[2] .

ومهما يكن من أمر الانتقادات فإن المعالجة النفسية تبقى مهمة وضرورية للنص الأدبي ما دامت هناك عواطف وانفعالات وأخيلة[3] .

---

(1) المناهج النقدية في نقد الشعر العراقي الحديث (اطروحة دكتوراه) : 94 .
(2) ينظر: المصدر نفسه : 95 ، 96 .
(3) ينظر: المصدر نفسه : 98.

المبحث الثاني

أهم الجوانب التي أثمرت إبداعا في العمل النقدي

أ ـ الشعور و اللاشعور وعلاقتهما في الإبداع.
ب ـ الأحلام وعلاقتها بالإبداع .

قبل أن نخوض في موضوعنا (أهم الجوانب التي أثمرت إبداعا في العمل النقدي) لا بد أن نعرف كيف يدخل علم النفس في نطاق النقد ؟

لقد كتب عن هذا الناقد ديفد ديتش إذ يرى ان ذلك يتم بطريقتين : ((أولاً: في البحث عن عملية الخلق والإبداع ، وثانياً: في الدراسة النفسية لأدباء بأعيانهم لتبيان العلاقة بين مواقفهم وأحوالهم الذهنية وبين خصائص نتاجهم الأدبي))[1].

من ذلك يتبين لنا أن الناقد في عمله لا يمكنه إهمال الدراسة النفسية للأديب وفي الوقت نفسه لا يمكنه إهمال الجانب الفني لها؛ لان الأولى مرتبطة بالثانية ولا يمكن أن يعطي حكماً نقدياً إلا بعد أن تتم الدراسة النفسية للأثر الأدبي ، لان إعطاء أحكام على الناحية الفنية لا يكفي ، بل لا بد من دراسة فنية ونفسية في الوقت نفسه .

ويذكر ديفد ديتش : ((أن الاستقصاء النفسي لأدباء بأعينهم قادر على أن يعيننا أحياناً لنرى لِمَ أظهر أولئك الأدباء خصائص فارقة في آثارهم؟))[2].

ثم يبين الناقد عندما يكون النقد تحليلاً للأديب ، إذ يذكر أن الدراسات النفسية الحديثة قد أعطت للدارس طرائق منهجية يمكن استغلالها ليستطيع تحليل الاثر الأدبي ، فأنه يأخذ سيرة الأديب والوثائق والرسائل والاعترافات والشواهد التأريخية ، ليصل إلى الصراع والتجارب الصادمة والأمراض العصبية النفسية ليصل إلى نظرية يستطيع من خلالها التفسير والكشف عن أثره الأدبي[3] .

من هذا يكون هدف الناقد هو تحليل النص استنادا إلى كل ما يخص الأديب من رسائل وشواهد تأريخية وكل ما يخصه لكي يصل إلى حالته ويكشف عن سبب تميز الإبداع عنده ، فإن النقد هنا إلى جانب مهمته التي تكمن في تمييز الحقيقي من الزائف فأنه يجعل معها مهمة ثانية هي التحليل المبني على براهين ونظريات مستنده إلى نظريات علم النفس التي لا أجد ضرورة في المبالغة في دقائقها كي لا نبتعد عن خدمة الإبداع الأدبي .

---

(1) مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق ،: 523
(2) ينظر: المصدر السابق: 524
(3) ينظر: المصدر السابق : 529 – 530

أهم الجوانب التي أثمرت إبداعا في العمل النقدي

أ- الشعور و اللاشعور وعلاقتهما بالإبداع

إن مصطلح اللاشعور أصبح كثير الانتشار في الكتابات والمؤلفات الحديثة ، ولكن الكثير من القراء لا يعرفون عنه الكثير، ولا يعرفون ما علاقة اللاشعور بالإبداع؟ وما علاقتها بالعمل النقدي ؟

إن النظريات التي تؤكد على اللاشعورمتعددة وهي تؤكد على أن الشخص يمتلك ذخيرة تحت مستوى المعرفة او الدراية.أما رأيهم في الشعور فيشير إلى المعرفة او الدراية، والنظريات التي تميل إلى توكيد الشعور تنظر إلى الانسان بأنه عاقل[1].

((ففي سنة 1890 بدأ فرويد يقوي التحليل للنفس على وفق القوى اللاشعورية الخاصة به لأجل تقويم ما يقدمه مرضاه ويجهزونه به، وبتحليل أحلامه، ويخاطب نفسه بما يخطر بعقله ، ونتيجة لكل ذلك استطاع فرويد أن ينظر إلى ديناميكيته الداخلية))[2].

بدأ فرويد يلقي الخطوات الأساسية حول نظريته الشعور و اللاشعور عند تقسيمه العقل الإنساني الى ثلاثة أجزاء رئيسية ،الأنا وهو موضع (الشعور)،الهو (المستودع اللاشعوري للقوة الدافعة الغريزية)،والأنا الأعلى(العناصر الأخلاقية)[3].

إن الذي نبحث عنه في دراستنا هو الشعور واللاشعور، يعني ذلك الأنا والهو، والذي ينتج عنهما من إبداع فني.

((أل(هو) (ld) وضع هذا الاصطلاح للدلالة على ما هو لا شخصي ولاارادي ولا شعوري، وفطري في القوى العميقة التي تسيطر على الحياة الإنسانية وال(هو) يسير بوحي مبدأ اللذة، أي يندفع الى اشباع دوافعه اندفاعا عاجلا وكاملا بكل صورة، فان استعصى عليه إرضاؤه في عالم الواقع أرضاها في عالم الخيال))[4].

ألـ(انا) (ego) وهذا يكون في العام الثاني من حياة الطفل ويسير على وفق مبدأ الواقع، ويتكفل الأنا دون الهو والغرائز بالدفاع عن الشخصية وتوافقها مع البيئة، لإحداث التوازن وحل الصراع بين الكائن الحي والوا قع، أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحي[5].

((أن للـ(أنا) وجهين: وجه يطل على الدوافع الفطرية الغريزية في الهو، وآخر يطل على العالم الخارجي عن طريق الحواس. ووظيفته هي التوفيق بين مطالب الهو والظروف الخارجية. فهو أداة التكثيف للبيئة، وأداة تقييم الواقع وتكييف السلوك))[6].

---

(1) ينظر: الإنسان من هو؟ : 18.
(2) مبادئ علم النفس الفرويدي :14.
(3) ينظر: علم النفس في مائة عام :200.
(4) علم النفس الاكلينيكي:123.
(5) ينظر: علم النفس العام:75.
(6) علم النفس الاكلينيكي:125.

أهم الجوانب التي أثمرت إبداعا في العمل النقدي

وكما استنتج أكثر العلماء إن ألـ(أنا الأعلى) يكتسب في بواكير الطفولة ، فهو لا شعوري إلى حد كبير جدا، ويكون له اثر عميق باق في حياته كلها. وعلى الرغم من انه قد يتعرض لعوامل التعديل والتحويل بسبب تقدم الفرد في عمره وزيادة ثقافته وخبراته في المدرسة وفي المجتمع إلا انه يظل صورة طبق الأصل من تعاليم الوالدين ، ويظل محتفظا بخصائصه الأولى[1].

إن مدرسة التحليل النفسي الحديث تؤكد على دور اللاشعور في العمل الإبداعي، وتنسب إليه أهمية كبيرة .

يمكن أن نقول إن الدور الذي تقوم به عمليات ما قبل الشعور في عمليات الابتكار والإبداع يتوقف على حريتها في تجميع الأفكار وضمها ومقارنتها، ثم تصنيفها ، وبهذا أعطت مدرسة التحليل النفسي الحديثة دوراً كبيراً إلى اللاشعور في عملية الإبداع، إذ ((إن الشخص الخلاق الذي يمتلك قدرة ابتكارية عالية هو الذي يسمح لنفسه بالاقتحام في أساليب التفكير البدائية للعملية الأولية بينما يكون قادرا على العودة بسهولة الى التفكير المنطقي المعقول))[2].

ويقصد بذلك هو خوض هذا الفنان في عالم اللاشعور وابتكاره الإبداع وبعد ذلك يسهل عليه الرجوع إلى عالم الشعور.

((فالأدب هو عبارة عن رموز لرغبات مكبوتة في اللاشعور، وان هنالك علاقات وطيدة بين هذه الرموز وبين العلاقات الجديدة التي يجب أن يلتفت إليها الناقد عند تفسيره الأدب من الوجهة النفسية))[3].

---

(1) علم النفس الاكلينيكي :127.
(2) ينظر علم النفس الفني:164.
(3) قضايا النقد الحديث:98.